الهوية الوطنية والتلفزيون
عشر أطروحات لتطليّق المسلمات

د. نصر الدين لعياضي
جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

الطريق إلى الحقيقة تتعدد بتعدد السالكين - محي الدين بن عربي

إن الحديث عن " الهوية الوطنية" لم يعد مقتصرا على المجتمعات التي سعت إلى تكوين دولة وطنية بعد "استقلالها السياسي"، وإخفاقها في بناء اقتصادها المستقل، وشق طريقها التنموي بعيدا عن التبعية لدول " المركز" أو القوى التي استعمرتها. و الجدل المتوتر حول موضوع الهوية أصبح يثار في الدول المتقدمة والنامية، على حد سواء، طارحا هاجسا كونيا. فكلما اشتد النقاش حول العولمة وتبعاتها يثار، بإلحاح، موضوع الهوية بكل ما تحمله من عناوين: هوية وطنية، هوية ثقافية، هوية فردية، هوية جماعية... وكأن هناك علاقة تناقضية بين العولمة والهوية.

قليلة هي الدول التي لم تعش توترات ناجمة عن الهوية، التي إن لم تفرزها الجغرافيا أحياها التاريخ أو أيقظها الحاضر. فبعض الدول أصبحت تشدد على مُكون واحد لهوية مواطنيها، مثل: الدين، العرق، اللغة، الانتماء الجغرافي، بل تختصرها فيه، بحثا عن أرضية للتوافق والانسجام بين مواطنيها

وتمتين شرعيتها. وبعض الدول العظمى، والتكتلات الدولية والإقليمية تقوم بالشيء ذاته لزعزعة استقرار بعض الدول خدمة لمصالحها الجيو- ستراتيجية.

إن كان هاجس الهوية حاضرا، بشكل أو أخر، في جل دول العالم، تقريبا، في مطلع الألفية الحالية، فإن الإحساس بها وإدراك مصاعبها وتبعاتها يختلف من دولة إلى أخرى. ففي فرنسا، على سبيل المثال، التي تشكلت هويتها في ظل سلطة الدولة المركزية القوية، وفي خضم النزاعات المسلحة عبر التاريخ، نمت الخشية من ذوبان هذه الهوية نتيجة تراجع الدور التاريخي للدولة[1]

كما أن موضوع الهوية قد طُرح، بحدة، في المكسيك بعد توقيعها على اتفاقية التبادل التجاري الحر في يناير 1994 مع الدولتين المتجاورتين: الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. إن هذه الاتفاقية رسمت أفاق تطور المكسيك ضمن تكتل إقليمي تحكمه قوانين عولمة الاقتصاد والخدمات، مما أثار حركة احتجاج واسعة عبرت عن توجس جزء من المواطنين من إبعاد الثقافية الأهلية(ثقافة السكان الأصليين) كمكون أساسي للهوية المكسيكية بفعل تسليع الثقافة والإعلام وفق معايير السوق الكونية. وفي فيتنام تطرح مسألة الهوية في سياق مختلف، إذ أن الفيتناميين الذين خاضوا حربين متتاليتين على مدار عشرين سنة لم يكن لهم أدنى فكرة عن هوية إنسان بلد. فالتصنيفات التي كانت تقسم المجتمع الفيتنامي إلى أخيار (عمال وفلاحين...) وأشرار (الإقطاع والبرجوازية) قد زالت، وزالت معها كل القيم التقليدية، إذ ظهر التدافع جليا نحو نمط المعيشة المادي والمتعي، بل أصبح مشروعا. أما في كندا، فإن مسألة الهوية تُثار في ظل تعاقب موجات الهجرة، والاحتقان اللساني الذي أوجدته

---

[1] - ليس غريبا أن تحتدم الحملة الانتخابية للرئاسيات الفرنسية التي جرت في أبريل 2007 حول موضوع " الهوية الفرنسية، وتنتهي إلى إنشاء وزارة للهوية والهجرة:

Voir l'interview de Pierre Nora (2007) : « le nationalisme nous a caché la nation », accordée à Sophie Gherardi , Le monde , France , du 17mars

الازدواجية اللغوية المتبعة في البلد (استعمال اللغتين: الإنجليزية، والفرنسية) ذات التداعيات الخطيرة على وحدة التراب الكندي. وحتى الدول- الأمة الكبرى، التي تظهر للبعض بأنها محصنة ضد مخاطر العولمة، ومحمية من أي تهديد يستهدف تفكيك هويتها، وتبدو أقل " مطالبة بهويتها"، سواء خوفا من النزعة القومية التي ازدهرت في الماضي بكل اوزارها الأليمة أو لصعوبة التفكير في خصائص ثقافتها الوطنية اليوم[1] ، تقف في حيرة مما يخبؤها لها الغد، خاصة بعد أن بدأ مفهوم الخدمة ينسحب من حقل الثقافة تاركا المجال لمفهوم السلعة، التي تعني عمليا الفرز والإقصاء الذي يؤول إلى خلخلة التجانس الاجتماعي.

وفي الدول العربية استفحل هاجس الهوية نتيجة تعاضد بعدين أساسيين متداخلين: البعد الأول تاريخي نما بعد أن اخضع الاستعمار جل الدول العربية لسبطرته، وحاول إعادة صياغة مجتمعاتها اقتصاديا وثقافيا، وإن كان لم يحقق النجاح المأمول إلا في بعض الدول القليلة، لكنه زرع الشك والحذر لدى قطاع واسع من الشعوب العربية تجاه أي ارتباط بالدول الغربية وتوجهاتها. والبعد الثاني راهني يتمظهر في انشقاق الوعي العربي بين مطالب الهوية والحداثة[2] فمطالب الهوية لدى بعض النخب العربية أصبحت تعني، عمليا، الحفاظ على الخصوصية والعودة إلى الماضي، وإحداث قطيعة مع الغرب و" ثقافته". أما مطالب الحداثة لدى بعض النخب الأخرى، فتقترن بالتجرد من الهوية، والتنكر للماضي الذي يمد " الذات" العربية بعناصر الخصوصية.

---

[1] - Dominique WOLTON (2001) :L'identité culturelle française, face à la mondialisation de la communication, Intervention lors de la séance du lundi 28 mai , l'académie des sciences morales et politiques, Paris.

[2] - برهان غليون (2007) : إشكالية الأزمة العربية: التاريخ ومظاهر الحلول، حوار أدلى به إلى مارك حامدي، مجلة الرافد، الشارقة، عدد 118- يونيو

إن زوال الحدود الجغرافية والثقافية أمام غزارة تدفق الأموال، والمنتجات، و السلع والخدمات والتصورات والأفكار وسرعة تبادلها، وما ترتب عنها من تبعات على الصعيد المادي أو الرمزي، دفع بعض الباحثين إلى المطالبة بإعادة النظر في تعريف بعض المفاهيم الأساسية التي شكلت مركز ارتباط وانتماء، مثل: الأمة، والهوية التي تعيش أزمة عميقة وممتدة. إنها أزمة شرعية الدول في احتوائها للهوية[1]

إذا كانت العوامل التي نمت الإحساس بالخوف على الهوية الوطنية أو الهويات المحلية أو القومية، معروفة، فإن تلك التي تصنع الخوف من الهويات الوطنية أو القومية تظل مخفية أو متستر عليها في ظل تزايد بؤر التوتر والنزاعات المسلحة في العالم، التي لا تُفسر، في الغالب، بقدر ما تُبرر بمصوغات إيديولوجية.

حقيقة، إن بروز ظاهرة الدولة- أمة في التاريخ البشري وما واكبها من تنامي النزعات القومية قد أدى إلى مآسي لازالت البشرية تحمل ندوبها، مما أدى، اليوم، إلى الريبة من كل حديث أو فعل لتعزيز الثقافة الوطنية أو القومية، لكن تجاهلها لصالح ثقافات أخرى " حديثة" ومعولمة، أو نكرانها أو مقاومتها أو دفعها للاندثار قد يجعلها مصدرا للتوتر والعنف[2] إن لم يحولها إلى " هويات قاتلة" على حد تعبير الروائي أمين معلوف.

إن الحديث غير المباح عن أسباب نشوء ظاهرة الخوف من الهويات قد يبعد التفكير الرصين والعلمي عن البحث في صلة الوصل بين الخوف على الهويات ومنها، وانقلاب الخوف الأول إلى الخوف الثاني. هذا إذا استبعدنا، طبعا، كل مبالغة وتهويل في الخوفين لأسباب متعددة...

---

[1] -Jean-Michel Frodon (1990) ; cité par Berdiaev Nikolaï (1990), Le destin de la Russie, Moscou : p. 11

[2] - Dominique Wolton , op cité

بعد هذه المقدمة العامة، يمكن التساؤل ما علاقة وسائل الإعلام المعاصرة، والقنوات التلفزيونية تحديدا، بالهوية الوطنية أو الهويات المحلية؟ هل أن هذه الوسائل تعمل على تعزيز الهويات وتجديدها، أو تسعى لتهميشها واندثارها؟ هل تعمل وسائل الإعلام على تعزيز الخوف على الهوية أو تشجع الخوف منها؟ ولو افترضنا، تجاوزا، أن العولمة تعمل على تجريد البشرية من هويتها، فما دور القنوات التلفزيونية في الدفاع عن هذه الهوية المهددة؟ ولو آمنا بأن تشكل هوية ما وتطورها او اندثارها لا يتم بين عشية وضحاها، بل يأخذ مسارا طويلا ومعقدا، فما دور التلفزيون في إثرائه أو إفقاره؟ وما هي انعكاسات الهوية على التفاعل مع التلفزيون؟ وبماذا يمكن أن تساعدنا النظرية الاجتماعية الخاصة بصياغة المعنى من مشاهدة البرامج التلفزيونية؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة يجب التريث قليلا لتعريف ما هي " الهوية" وما هي خصائصها، حتى يكون مسعانا في الحديث عن علاقتها بوسائل الإعلام، أو العكس، واضحا ومبنيا على توصيف محدد. فالحديث الغامض عن الهوية يجعل علاقاتها بوسائل الإعلام الحديثة أكثر غموضا، ولا يضيف شيئا ذا قيمة معرفية سوى اجترار الصور النمطية التي لا تفلت من التناقض، حيث تقدم " هويتنا" في صورتها المتماسكة والمشرقة التي أثارت شهية الأطماع للنيل منها، طورا، أو إبرازها، تارة أخرى، في حالة احتضار تستعد لتوديع العالم ولا يفيدها أي شيء سوى كلمات التأبين، التي تأخذ مظهر جلد الذات.

محددات تعريف الهوية: إذا كانت الإشارة إلى " الهوية" قد بدأت في الخمسينيات من القرن الماضي، فقد تم تداولها في العلوم الاجتماعية والتحليل

الاجتماعي في منتصف الستينيات في فرنسا، ومنه انتقلت إلى الخطاب العمومي.[i]

وبعد أكثر من نصف قرن من التداول في الحقول المعرفية المختلفة (الفلسفة، علم النفس، علم الاجتماع، علم الانثروبولوجيا) لازال مفهوم الهوية يعاني من الغموض والتباين. وإزاحته من خانة البديهيات التي قادته إليها الكتابات الصحفية المستعجلة والخطب السياسية ذات النبرة الاستعمالية يحتاج إلى جهد نظري لتوضيحه، أو إعادة تعريفه تماشيا مع التطور الاجتماعي الذي يفرض على التفكير العلمي أن يجدد إدراكه للمفاهيم التي يشتغل عليها أو يشتغل بها، وذلك لأن الهوية تشكل، كغيرها من المفاهيم، وحدات للممارسة الاجتماعية والسياسية، وأيضا، وحدات للتحليل الاجتماعي والسياسي.[2]

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أن مفهوم الهوية لا يشكل موضوع إجماع في تعريفه وغاياته، لأنه يطرح بعض القضايا المرتبطة بجوهر الوجود الفردي والجمعي والوطني، ويحدد خصائص الأنا مقارنة بالأخر، لذا لا بد من الاستعانة ببعض المحددات التي تساعدنا في فهم الهوية، والتي نذكر منها، على وجه الخصوص، ما يلي:

i- **محدد "الأنا"**: نقترب من فهم الهوية إذا حاولنا البحث عن القسمات التي تميز الأنا وتكشف عن خصائصها الجوهرية. لقد حاول الناطقون باللغة الفرنسية استجلاء معنى الهوية Identité انطلاقا من الاشتقاق اللغوي، والذي نُحتت منه كلمة Identique، والتي تعني الوحيد؛ الأصيل؛ أي الذي لا يوجد

---

[1] - Philip Gleason, (2001) : « Identifying Identity : A Semantic History », cité par Rogers Brubaker : au- delà de "l'identité », actes de la recherche en sciences sociales- Paris n° 139 avril

[2] - Idem

شبيها له، فالوحيد يتحول إلى فريد؛ أي متميز عن الأخر (unicité)[1]. وهنا لابد من الإشارة إلى أن المتميز لا يعني الأفضل، كما درج استعماله لدى العامة، والذي يكتنز حكما قيميا إن لم يحتو على تضمين عنصري، بل يدل على الشيء المختلف فقط.

يجري الحديث، في الغالب، عن الهوية كأنها الصورة التي نملكها عن ذاتنا وعن بلدنا، ومن النادر أن يُبنى هذا الحديث على نتائج البحث الميداني الذي يستنطق الأشخاص وسلوكهم لتفكيك بنية الهوية إلى العناصر الأساسية التي تشكلها، أو يستجمع القسمات الأساسية التي تكونها.

لقد رام معهد العالم العربي بباريس هذا المبتغى، حينما جمع نفرا من المثقفين العرب، قبل أكثر من عقد من الزمن، حول السؤال التالي: ماذا يعني أن تكون عربيا في نهاية القرن الماضي، وكانت الإجابات جد متنوعة تعكس تباين الرؤية للهوية العربية أو تعدد الهويات وتنوعها داخل الهوية الواحدة. وبهذا ندرك أن الهوية ليست معطى مركبا من دين ولسان وتاريخ مشترك فقط، بل إنها ذات مضمون متعدد ومتجدد. إن الهوية تحيلنا إلى مفهوم الخصوصية الغني بالتضمينات الذي يستعصى المسك به، لأنها ذو قابلية للتجزئة والانشطار المتجدد على عدة مستويات: جغرافية، واجتماعية، وتاريخية.وثقافية، وحضارية.

لقد كانت الدراسات الأنثروبولوجية والاثنية (Anthropologic and ethnic studies) في القرنين والثامن والتاسع عشر تتسم بنزعة استعلائية، وتحمل تضمينات سلبية لارتباطها بالمشاريع الاستعمارية القائمة على معرفة الأقليات العرقية وخصائصها السلوكية ومعتقداتها للسيطرة عليها ومسح خصوصيتها. أما في الظرف الحالي فقد أعيد الاعتبار لهذه الدراسات من أجل الحفر في

---

[1] - Indira Yakovenko (2004) : L' identité russe à travers le marche international de l'audiovisuel et cinématographique, les éditions électroniques Commposites

مكونات الأنا وتحريرها من عقدة الإحساس بالدونية، والكشف عن مميزاتها وخصوصيتها أمام الأخر في ظل زيادة الاهتمام بالنسبية والتنوع الثقافيين.

2- **محدد الأخر**: إن الوعي بالهوية لا يتم بالاستناد إلى إدراك خصائصها فقط، بل يتحقق من خلال الوعي بالآخر[1] أي بالنظر إلى خصائص هوية الأخر. إن جماعة بشرية ما أو أمة معينة تكون بدون هوية أو فاقدة الإحساس بها إذا عجزت عن الرؤية أو الإقرار بما لدى أمة أخرى ولا يوجد لديها، أو لم تستطع أن ترى ما لديها وهو غير موجود لدى أمة أخر. فالشعور بالهوية الذي يغمر المرء ويملأه إعزازا أو يمده بالثقة والقوة لا يتم، في الغالب، إلا بالنظر إلى هوية الأخر، أو إلى صورته لدى الأخر.

نميل إلى الاعتقاد بأن إحدى مصادر التوتر والقلق في الهوية العربية الإسلامية يأتي من عدم التشخيص الموضوعي للآخر. فصورة الأخر في هذه الهوية تبدو حُبلى بالكثير من الإسقاطات الذاتية والنزعات الإيديولوجية. إن العدو، بصرف النظر عن قوميته أو دينه، يتمظهر في الدراما التاريخية العربية، على سبيل المثال، في صور بعيدة عن الواقع، وقريبة جدا من الكاريكاتير: عاجز، غبي، بدون أخلاق، ماجن، يجالس النساء وسكير. ويا ليت هذه الصور بقيت في ذمة التاريخ؛ إنها حاضرة، بهذا القدر أو ذاك، في الخطاب العربي السائد في العصر الحالي ولم تتغير كثيرا.

3- **محدد الذاكرة**:إن مفهوم الهوية يفترض وجود الأنا في الزمان والمكان، وهنا تبرز علاقة الهوية بالذاكرة. ففي الذاكرة ترسب الهوية لتبقى، وتحافظ على استمرار وجودها، دون أن تذوي تحت وطأتها. فإذا قلنا أن الهوية هو ما يربط مجموعة بشرية عاشت تجارب مشتركة وتستعيدها في تعاملها مع

---

[1] - محمد عابد الجابري(2007) :كلام في مسألة الهوية، صحيفة الاتحاد الإماراتية 28 أبريل

الواقع اليومي، ندرك أن الذاكرة هي النسغ الذي يحدث التماسك في بناء هويتنا ويحافظ عليها من الاندثار، ويجعلها معيشة. فالشعوب التي تفقد الذاكرة يصعب عليها أن تحدد ماهيتها، ووجودها في الزمان والمكان. وفي هذا المقام يمكن أن نستجلي مظاهر التوتر في الهوية العربية الإسلامية مع ذاكرتها. والتي يرجعها البعض إلى الحقيقة التي يسعى القول الشائع، وغير العلمي، إلى إثباتها بتأكيده على أن الحامل الاجتماعي للهوية المذكورة لا يقرأ تاريخه. إن مثل هذا التأكيد يتستر على الكتابة الانتقائية لهذا التاريخ، التي تحفل بجانبه البطولي وتخفي جانب الإخفاق والضعف فيه. ويتجاهل الدور الاجتماعي والثقافي المتضائل الذي تمارسه المتاحف، وكل الحوامل المادية والرمزية للذاكرة، في الحياة الاجتماعية في المنطقة العربية.*

4- **الهوية كمعطى منجز:** إن الهوية ليست معطى جاهزا وكامل البناء، فالخصائص الجوهرية التي تبنى الهوية أو تركبها لا تتشكل إلا عبر جملة من التراكمات المعقدة، أي في ظل تطور تاريخي، وذات الصلة بالواقع الحالي. لذا يبدو أن الوعي بالهوية يجعل التاريخ حيا، يتحرك في الحاضر، يُستلهم أو يُستنجد به كلما ظهرت الحاجة إلى ذلك.[1] إن الاستنجاد بالتاريخ لا يعني أبدا أن الهوية منجز تاريخي كامل ومنغلق على ذاته في وجه المؤثرات الخارجية. فالهوية ليست كيانا ماضويا خالصا مثل التراث.

إن الترجمة العملية للتعريف الذي تقدم به المفكر المغربي محمد عابد الجابري للهوية، والذي يلخصها في" الوعي المتجدد بذاتنا" [2]، تعني أن "

---

[1]- المصدر ذاته.

[2]- المصدر ذاته

الهوية" تحيل الناس إلى ما يملكونه، وما يبحثون عنه، وما يبنونه، ويتفاوضون من أجله.[1]

إذا الهوية لا تملك طابعا ثابتا، وقارا، أنها تتحرك، تتكيف، وتتطور، وذلك لأن مصالح حامليها كمجموعات أو جماعات لا تتوافق، في بعض الأحيان، فتنتج نظاما تراتيبا متحولا. وتطورها ينجم، أيضا، عن التلاقي أو التصادم مع المجموعات البشرية والثقافات المختلفة الناتج عن تعدد قنوات التواصل والاتصال وانتقال أنماط السلوك و"استهلاك" الرموز الثقافية، وتزايد موجات الهجرة بحثا عن الرزق أو العلم أو الربح الوفير أو السريع بالنسبة للشركات التي أعادت انتشار مصانعها في الكرة الأرضية.

لعل النقاش الذي يثار حول وسائل الإعلام والهوية في الفضاء العربي تكمن في ثقل التاريخ في فهم هذه الأخيرة من جهة، وفي الاقتناع بوجود تفاوض حول مكونات الهوية وتجددها أو ضمان " نشأتها المستأنفة" أو توجه نحو استبدالها بما يفيض به اقتصاد السوق وتكنولوجيات الاتصال الحديثة من مثل ورموز، فتعيش تجربة " إعادة نشأتها المبتورة"؟

5- **الهوية والمتخيل**: اقترنت الهوية بالشعور بالانتماء، وبوشائج الارتباط بكيان أو مجموعة بشرية أساسية، مثل الأمة. لذا يقال بأن الهوية تعاني من أزمة لأن الأمة ذاتها تعيش أزمة بفعل السوق العالمية التي تعمل على إزالة كل الحواجز الطبيعية والثقافية التي تقف عائقا أمام امتدادها. لكن ما هو التعريف المعاصر للأمة الذي يمكن أن يقربنا من إدراك الهوية؟

يعرف الباحث: بنديكت أندرسون (Benedict Anderson) الأمة بأنها مجموعة سياسية خيالية ومتخيلة Imaginaire et imagée وذلك لأن أعضاء أي أمة، حتى الصغيرة، لا يعرفون أغلبية مواطنيهم، ولا يلتقون بهم، ولا يسمعون عنهم

---

[1]- Rogers Brubaker, op cité

رغم أن في ذهن كل واحد منهم تعيش صورة مجموعاته: الوطنية أو القومية.[1] لذا يرى البعض أن ما هو متصور كفعل ثقافي يملك أهمية في تطور الأمة يعادل أو يزيد عن أي عامل طبيعي، مثل: اللغة أو العرق أو الدم. لكن الأمة تفقد عوامل استمرارها بدون هوية تعدّ، في أخر المطاف، نتيجة فاعلية عقلية ووجدانية، أي ذاتية. أي ما نتصوره عن ذاتنا، وما نشعر به وندركه ويدفعنا إلى التضامن أو الفعل الجماعي.

لعل هذا التزاوج بين المحسوس والمتصور في الهوية، وبين الوجداني والعقلي في تشكلها يدفع لاعتبار الهوية كفكرة لا يمكن أن نفكر فيها بالطريقة القديمة، والتي بدونها لا يمكن أن تكون بعض الأسئلة الأساسية مفكر فيها أصلا.[2]

القنوات التلفزيونية والهويات المحلية أو الوطنية:

قبل الاقتراب من تحليل علاقة القنوات التلفزيونية بهوية الشعوب والأمم تبدو الحاجة ماسة إلى التأكيد على المعطيات التالية:

1- من الصعب أن نستبعد مضمون ما تبثه القنوات التلفزيونية المختلفة في حقل التصور، والصور التي ينتجها الأشخاص عن ذاتهم وكيانهم الجماعي، وما يكتسبونه من انطباعات أو أحكام ورؤى للأخر. فالجمهور أصبح طرفا منتجا للمعنى انطلاقا مما تقدمه له وسائل الإعلام. هذا بصرف النظر عن مدى مطابقة ما تبثه وسائل الإعلام من تمثلات مع الواقع اليومي الذي يتغير باستمرار. فالإعلام المرئي يقدم تمثلات لما يجمعنا للعيش معا.

إن عملية إنتاج المعنى، وليس التقاطا لها، مما يشاهد في التلفزيون أو يقرأ في كتاب تخضع لجملة من المتغيرات المترابطة، يتداخل فيها الشخصي

---

[1] – Benidict Anderson1996 ( ): l'imaginaire national, Paris, la découverte, p1 9

[2] - Stuart Hall, « Introduction : Who Needs " Identity " ? » Cité par Rogers Brubaker, op cite

والجماعي. وهي عملية ديناميكية تتلون بتلون السياقات، فالمعنى المستخلص من مشاهدة فيلم سينمائي لأول مرة، على سبيل المثال، يكون مختلفا، بهذا القدر أو ذاك، عن مشاهدته للمرة الثانية بعد أشهر أو سنوات.

2- من الصعب النظر إلى موضوع التلفزيون والهوية من كوة مضمون ما يبثه فقط، والتعامل مع العدة التكنولوجية الناقلة للمضامين الإعلامية والثقافية والترفيهية بمرجعياتها الفكرية والقيمية كأجهزة محايدة، وليس وسائط تمارس مفعولها في الوجود الاجتماعي للفرد والجماعات البشرية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى يصعب التسليم بوجود الفرد أو الجماعات التي تتخذ الوضع الساكن، ولا تتفاعل مع هذه الوسائط عبر جملة من الظواهر المعقدة ذات الدلالات المختلفة من ثقافة إلى أخرى، والتي اختصرت في الثالوث التالي: التمثل Representation للوسيط، واستملاكه appropriation، واستخدامه Usage[1]

3- إن الحديث غير الحذر عن العلاقة بين الهوية والتلفزيون أو وسائل الإعلام قد يجر بعض المتحدثين إلى عزلها في إطار ثنائي مغلق يغفل دور الوسائط الاجتماعية والثقافية الأخرى (المدرسة، الجامعة، المسجد، الشارع، الأسرة، موقع العمل، النادي والملعب، المسرح، السينما، والإذاعة، والصحف، وشبكة الانترنيت..) وتحييد علاقاتها بالهوية.

إذا، علاقة القنوات التلفزيونية بالهويات المحلية أو الوطنية قائمة وديناميكية ومتبادلة تتم على مستويين: الحاوي والمحتوى. والخلاف في الرؤية إليها يكمن في طبيعتها و مفعول آلياتها. وهنا يمكن أن نستعرض الاتجاهات الثلاثة المحددة لمحتواها ورهاناته:

---

[1]- أنظر على سبيل المثال إلى المقاربة الميدانية لهذا الثالوث:
عبد الوهاب بوخنوفة: الأطفال والثورة المعلوماتية : التمثُّل والاستخدامات، بحث غير منشور

الاتجاه الأول: وسائل الإعلام الحديثة الكونية كماح للهويات المحلية والوطنية:

ازدادت سطوة العديد من وسائل الإعلام الحديثة بعد أن أصبحت مؤسسات وشركات كونية ولجت سوق المال لطرح أسهمها المالية للتداول، وبعد أن شكلت قطاعا لتمركز رأسمال الاستثمار. وبهذا تحولت إلى أنموذج ناجح في نظر العديد من الدول والمؤسسات الإعلامية " الوطنية" التي ظلت تتعامل مع المادة الإعلامية كخدمة عامة، وكحق أساسي من حقوق المواطن. إن هذا النجاح الذي يعتمد على المعيار التجاري فقط، أصبح أكثر إغراءً فعجّل في تراجع دور الدولة في مجال الإعلام والثقافة، بعد أن شرعت في التنصل من دورها في مجال التربية والصحة في ظل الليبرالية الجديدة.

يعتقد الكثيرون أن وسائل الإعلام الكبرى ليست كيانات مستقلة تنشط في فراغ. إنها جزء من النسيج الاقتصادي والاجتماعي، فهي سلاح العولمة الذي توظفه لنشر قيمها وأنماطها السلوكية. فوسائل الإعلام الكونية تسعى لتحقيق مرامي العولمة كنظام يعمل على إفراغ الهوية الجماعية من كل محتوى ويدفع للتفتيت والتشتيت، ليربط الناس بعالم اللاوطن واللاأمة واللادولة. [1]

وبهذا تبدو وسائل الإعلام كأداة لمعالجة التناقض، الذي ما انفك الفيلسوف المغربي عبد السلام بن عبد العالي يشير إليه، بين المفهومين: التواصل والانفصال في مجالي الاقتصاد والثقافة: فالاقتصاد المعولم ينشد التواصل، لأنه يحدث التجانس في الطلب، ويوحد المنتجات والسلع وفق معايير كونية ترمي إلى تذويب الخصوصيات الاستهلاكية والثقافية. أما الثقافة التي نشأت وتطورت ضمن بعدين: المكاني والزمني فإنها تنشد الانفصال، من

---

[1] -محمد عابد الجابري: العولمة والهوية الثقافية :عشر أطروحات- مجلة فكر و نقد، عدد 18 -6

خلال التمسك بالسلوكيات والأذواق والقيم الخاصة بالشعوب والأمم والحفاظ عليها. إن التوفيق بين منطق الانفصال والتواصل في زمن العولمة، إذا وجد فعلا، أفرز ثقافة كونية ليست وليدة مكان بعينه، أو قومية بذاتها، بل إنها وليدة اللامكان، ومتجاوزة الزمن المحلي. وأسهم في إنتاجها أشخاص يحملون جنسيات دول معينة لكنهم ينتمون إلى قوميات متعددة توحدهم نزعة واحدة: تلبية متطلبات السوق.

تأسيسا على ما سبق، تزايد عدد المعتقدين بمقدرة وسائل الإعلام الكونية على محو الهويات ذات الطابع الوطني التي كانت سائدة في مطلع القرن الماضي والتي تكبح شهية السوق العالمية بمنتجاتها وحمولاتها الرمزية، وتعمل على إحداث التجانس في الثقافات وتوحيدها بما يتماشى ومتطلبات هذه السوق.

رغم الهيمنة الأمريكية في مجال المنتج الثقافي والتلفزيوني تحديدا، إلا أن الاستثناءات الثقافية مازالت قائمة وتتمتع بحيوية ملحوظة في التعبير، بهذا القدر أو ذاك، عن الهويات المحلية. فالمسلسلات المكسيكية (Telenova)، وأفلام الكارتون، و أفلام الرياضة القتالية اليابانية، على سبيل المثال، لم تمح من شبكة البرامج التلفزيونية المحلية، بل صودرت إلى القنوات التلفزيونية الأجنبية (الأوروبية، والأمريكية، والعربية...) وازدادت شعبيتها. هذا إضافة إلى أن هذه الشبكة ما زالت تراهن على البرامج المحلية لجذب أكبر عدد من المشاهدين في زمن ذروة البث التلفزيوني.

إن القنوات التلفزيونية " الوطنية" تبث، فعلا، فيضا من البرامج التجارية الأجنبية المستوردة من دول محدودة، وإن كان جلها أمريكي. وبالموازاة لها توجد برامج تلفزيونية لا تجتاز الحدود لأنها تعبر بكثافة عن الثقافة الوطنية، وتعدّ منتجا وطنيا خاصا. فالمنوعات والألعاب الإيطالية لا يوجد ما يضاهيها

في أوربا، الشيء ذاته يقال عن برامج التسلية والفكاهة الانجليزية، والبرامج الأدبية الفرنسية أو ما بقي منها.[1] كما أن التمثلات والصور النمطية للهوية الدينية للطبقة الوسطى الحضرية الهندية تتحكم في البرمجة التلفزيونية في القنوات التلفزيونية الهندية.

خلاصة القول، إن هذا الاتجاه يستند في رؤيته إلى علاقة التلفزيون بالهوية إلى مقاصد أو نوايا منتجي المادة التلفزيونية والقائمين على توزيعها أو بثها، والعوامل التي تتدخل في صياغة مضمونها، ولا يأخذ بعين الاعتبار المتلقي ويغفل دوره النشيط في تأويل ما يشاهده في الشاشة الصغيرة ويوظفه في حياته اليومية. لذا يعجز هذا الاتجاه عن تفسير ما يعتقد أنه متناقضا في سلوك المشاهد العربي، الذي يحرص على مشاهدة برنامج " هزي يا نواعم" (برنامج على نموذج تلفزيون الواقع يعرض مسابقة في الرقص الشرقي) الذي تبثه قناة LBC اللبنانية، ويشاهد بالحرص ذاته برامج قناة " أقرأ" التلفزيونية.

الاتجاه الثاني:وسائل الإعلام عنصر ديناميكي يسهم في تشكيل هوية جديدة

ينطلق العديد من علماء الأنثروبولوجيا، مثل: أرجون أبدوراي Arjun Appadurai، وأريك شويمر، Eric Schwimmer، وميخائل هيرزفيد، Michael Herzfeld، و ألف هنيرز Ulf Hannerz، وجنتن فريدمن Jonathan Friedman، وغيرهم من النموذج النظري Paradigm الذي يؤكد أن العولمة ليست مرادفا للتجانس الثقافي الكوني وتنميطه. لذا، تبنوا، بهذا القدر أو ذاك، المقاربة العلمية

---

[1] نصر الدين لعياضي: التلفزيون، البرمجة، المشاهدة (1998) : أراء ورؤى، دراسات اجتماعية " 38"، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، ص 14

التي تسعى لتفنيد الرأي المحذر من ضياع " الهويات " البدائية" أو اضمحلالها في مجهول الثقافة التي تتعولم، أكثر فأكثر.

من هذا النموذج Paradigm صاغ الباحث أرجون أبدوراي، فرضيته الأساسية التي تؤكد على أن الجماعات الاجتماعية، والأقليات العرقية والثقافية، التي تبدو في الظاهر كضحايا سلبية لقوى القرية الكونية والعولمة، والدولة-أمة، قادرة على استعمال الأشكال اللينة واللبقة لمقاومة الثقافة الكاسحة، واستظهارها.[1]

إن أي تأويل للنموذج النظري المذكور أنفا لا يسمح باعتبار العولمة قوة محايدة وغير فاعلة في الهويات الفردية و الجماعية والوطنية والقومية، لأنها تؤدي إلى ميلاد " هويات جديدة" معقدة، تنتج خليطا يتضمن عناصر من الهوية المحلية أو الوطنية أو القومية، وعناصر مكتسبة من الثقافة المعولمة. ويذهب الباحث أرجون أبدوراي إلى تشخيص القوتين الأساسيتين اللتان توجهان ديناميكية الهويات في ظل العولمة، وهما: حركة البشر وانتقالهم عبر الدول (كمهاجرين أو منفيين أو لاجئين سياسيين، أو طلاب علم، أو عمال مؤقتين) ووسائل الإعلام المختلفة: السينما، والتلفزيون، والانترنيت أخيرا.

إذا كانت الهوية هي الصورة التي نملكها عن ذاتنا فإن وسائل الإعلام تعمل على إعادة إنتاجها أو تعميمها أو تطويرها أو تحوَيرها أو نفيها، مستفيدة من مكانتها كوسيط يربط بين مختلف شرائح جمهورها ويوحد تجاربهم العاطفية والاجتماعية، ويعزز انتمائهم إلى مجموعة أو جماعة أو أمة، ويتمتع بمقدرته العالية على التغلغل في شرايين المجتمعات والاندساس في روتين الحياة اليومية.

---

[1] -Fabien Granjon (2002) : Note de lecture de l'ouvrage : Après le colonialisme. Les conséquences culturelles de la globalisation, Paris : Payot, (2001) 322 p. de Appadurai Arjun, Composite v2002.1

في رصده لتأثير وسائل الإعلام على الهوية يستعمل الباحث ذاته مصطلح " ميديا سكوب " Mediascapes [1] للتأكيد على عدم وحدوية هذا التأثير ونمطيته من جهة، والإشارة إلى قوة الرصيد الذاتي في رؤية ما تعرضه وسائل الإعلام وتأويله، والذي يختلف من شخص إلى أخر، ومن جماعات اجتماعية إلى أخرى.

وتفصح قوة هذا الرصيد عما أطلق عليه أرجون أبدوراي تسمية: التخيل L'imagination والذي يعرفه بأنه فضاء يبحث فيه الأفراد أو الجماعات لإلحاق ما هو عالمي بممارستهم اليومية [2]

إن التخيل عملية معقدة تتغذى من عدة وسائط اجتماعية، منها وسائل الإعلام. و لا تفضي، دائما، حسب الباحث ذاته، إلى تهجين الهوية، (الخوف على الهوية) بل تؤدي، أيضا، إلى المقاومة التي قد تصل إلى المطالبة بالاستقلال السياسي والثقافي الذي يأخذ، في بعض الأحيان، طابعا عنيفا (الخوف من الهوية).

يبدو أن مقاومة الثقافة المعولمة لم تحظ بالاهتمام العلمي الكافي سواء لعدم اكتسابها الشرعية السياسية المطلوبة، أو لرسوخ الاعتقاد بأنها "عاجزة لطوبويتها" ولا تفي بما تعد به. فمقاومة الأقليات الثقافية والعرقية والدينية في الدول – الأمم (في الدول الأوربية مثلا) توصف بأنها رفض الإندماج في المجتمع ونبذ مؤسسات الدولة وقيمها. أما مقاومة الثقافة المعولمة في الدول النامية فتوصف، تارة بتخلف قومها، وطورا برفضهم للتقدم والحداثة. لذا لم يتم التأكيد على آليات المقاومة بقدر التأكيد على آليات التهجين. فالباحث ميخائل هيرزفيد Michael Herzfeld يركز على مفهوم "Disemia " ويقصد به

---

[1] - Natacha gagné (1999) : : Identité et mondialisation, regards d'anthropologue Mémoire de (Ma) en anthropologue, Faculté des études supérieurs Laval (Canada)

[2] - Idem

التوتر الشكلي أو المرمز بين التمثل الذاتي الرسمي والحياة الخاصة.[1] والذي يترجم عمليا بالتفاوض الفردي أو الجماعي الضمني بين " الحميمية الثقافية Intimité Culturelle " والثقافة المهيمنة.

إن الحجة العلمية لهذا الاتجاه تستمد من الإيمان بالطابع الديناميكي والمتجدد للهوية، والذي يفضي إلى تشكل " الهوية الجديدة"، بصرف النظر عن اسمها: هجينة واعتبارها مسارا بديهيا في صيرورة الهويات.

أعتقد أن مركز الاختلاف والجدل في فهم علاقة التلفزيون بالهوية لا يكمن في نكران طابع التجديد والتحول الذي يسم الهوية، فقط، بل يمتد إلى سرعة التجديد في العصر الحالي، والتي تخلق نوعا من الارتباك والقلق في تعامل الأنا الجمعي مع التغيرات العاصفة في العالم المعاصر، حيث أنها لا تسمح للحوامل الاجتماعية للهوية من استيعاب ما يجري حولها من تحولات، وأخذ الوقت الكافي للتكيف معها. لقد اعتادت هذه الحوامل، في القرن الماضي، أن تتعامل ببطء مع المستجدات، وتهضم ما تريد هضمه وتلفظ ما تريد لفظه، بعد أخذ ورد، وبعد مسار طويل وبطيء من التفاوض العملي، والذي يكون في الغالب نتيجة تدافع وصراع بين القوى الاجتماعية المختلفة حول المضامين المتجددة للهوية.

الاتجاه الثالث:ليس كل مضمون وسائل الإعلام يتدخل في تشكيل الهوية الوطنية.

يحتدم النقاش حول مدى علمية هذا الاتجاه في الدول التي تعرف تنوعا لغويا، مثل: سويسرا، بلجيكا، و كندا التي تطرح هويتها كإشكالية نتيجة التوتر اللساني بين الناطقين باللغة الانجليزية، واللغة الفرنسية. لقد أعتبر بعض الباحثين الكنديين أن استهلاك البرامج التلفزيونية الأمريكية يشكل عائقا أمام

[1] - Idem

نمو الهوية الكندية. وقد وجدوا شرعية علمية لهذه القناعة في الدراسة الميدانية التي أنجزها الباحثان: ت مكفيل T. McPhail، و ج. برنت G. Barnett واللذان لاحظا أنه كلما أزداد حجم مشاهدة طلاب من مدينة " أوتاوا" للبرامج التلفزيونية الكندية ارتفع لديهم مؤشر الوطنية الكندية، خلافا لحجم مشاهدتهم للبرامج التلفزيونية الأمريكية الذي إذا ارتفع انخفض لديهم مؤشر هذه الوطنية.[1]

إن رفض هذا الاستنتاج استدعى نقاشا نظريا محتدا حول ما هو التلفزيون وما هي إسهاماته في صياغة أو إعادة صياغة الهوية الوطنية، إذ شكك فيما كان يعتبر في السابق من المسلمات. لقد كان الاعتقاد ومازال بأن التلفزيون يوجه ثقافة مشتركة لجميع مشاهديه، ويعمل على إدماجهم وتوحيد رؤيتهم لذاتهم، ويجدد انتمائهم إلى جماعة معينة عبر مختلف البرامج التي ينتجها أو يعرضها، بصرف النظر عن نمط تلفظها Pronunciation Types: النمط الدرامي، واللهوي، و الإخباري، والنمط الوثائقي.

يطعن بعض الباحثين، مثل: رشارد كولنز Richard Collins ، و فيليب شلينسنجر Philip Schlesinger، وغيرهم في هذه الحقيقة، ويذهبون في تحليلهم إلى الاعتماد على النمط التلفظي الإخباري في التلفزيون، دون غيره من الأنماط المذكورة، في بناء أو إعادة بناء الهوية، حيث يعتقد (إن الإعلام المتلفز يشكل القاعدة التي يبنى عليها معنى الحياة الجماعية.... فلا وجود لهوية وطنية إلا إذا كان الأشخاص يحكمون على الواقع بالمرجعيات ذاتها. والإعلام المتلفز يحافظ على هذه الرؤية المشتركة للمجموعة المحلية أو الوطنية بمنحها شبكة للقراءة المتجانسة لفهم الأحداث وتنشيط الشعور بالانتماء إليها. فالأخبار

---

[1] - Cité par Denis Mornière & Julie Fortir (2000): Radioscopie de l'information télévisée au Canada, Collection « politique et économie », les presses de l'université de Montréal (Canada), p 10

تؤثر في استظهار " الحياة الوطنية" من خلال تقطيع الرؤية للعالم عبر تقسيم الأحداث إلى وطنية وأخرى دولية، مما يرسخ في الذهن التمييز بين الـ" نحن" والـ" هم"[1]

نميل إلى الاعتقاد أن " للخصوصية" الكندية دور في بروز هذا الاتجاه الذي لا يرى ضمنيا أي فروق كبرى بين النسق الثقافي الكندي والأمريكي. إن التمييز الواضح والجلي بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية يكمن أساسا في الدولة وطبيعة مؤسساتها، لذا يجنح الحديث عن الهوية في كندا نحو طابعها السياسي أكثر من الثقافي، واللساني تحديدا، بغية الحفاظ على الإجماع الوطني بين الناطقين باللغتين الإنجليزية والفرنسية.

إن الباحث ريتشارد كولانز Richard Collins يرى إمكانية فصل الثقافة عن الهوية الوطنية. ويؤكد بأن إحداهما لا تختصر في الثانية باعتبار أن الهوية تتميز أساسا بطابعها السياسي.[2]

من الصعب الاقتناع بأن الهوية ظاهرة سياسية عقلانية، ومن الأصعب تجريدها من المضمون الثقافي. فالهوية تنتمي إلى حقل التخيل الذي يعد فعلا اجتماعيا وثقافيا تزن فيه الذاتية بكل ثقلها لتوجه التأويل الوجداني للحقائق الموضوعية. أن الثقافة تعدّ في نظر الكثير من الدارسين حاملا للهوية ومن مكوناتها الأساسية، لأنها تملك تراثا، وتاريخا، ومُثلا، وتصورات للزمان والمكان والمستقبل.

إن القول بأن الأخبار المتلفزة هي وحدها التي تتدخل في تشكيل الهوية الوطنية هو إغفال بأن الهوية تعبر عن ذاتها عبر عُدّة رمزية: سياسية،

---

[1] - Idem

[2] - Richard Collins (1990): Culture, Communication and National Identity : the Case of Canadian Television, Toronto, University of Toronto Press, cité par Denis Mornière, Julie Fortir

وأدبية، وفنية، ومزاجية، وخيالية... وإذا كانت الهوية نتاج إجماع بين الجماعات البشرية حول المرجعيات، فهذا الإجماع يتحقق في الحقل الثقافي بشكل أيسر وأمتن من الإجماع الذي يتحقق في الحقل السياسي، والذي يتميز بتقلباته الظرفية وحساباته المؤقتة.

كما أن التقليل من أهمية تبعات النمط التلفظي الدرامي واللهوي والوثائقي على الهوية الوطنية أو تجاهلها، يعني التنكر للعقد الإعلامي (Contrat médiatique) [1] الذي يبين أن الجمهور يكون أكثر يقظة وحذرا في تلقيه للأخبار المتلفزة من مشاهدته البرامج التلفزيونية الدرامية والألعاب، حيث يكون في حالة استعداد لتقبل بعض الأخبار أو رفضها أو التشكيك في صحتها لأنها ذات صلة بالواقع، بينما تظل المواد الدرامية: الأفلام والمسلسلات والمسابقات والألعاب التلفزيونية، تتسلل، بحمولاتها الرمزية، في غفلة منه، إلى لا وعيه الجمعي لأنها تعد أكثر بعدا عن الواقع من الأخبار.

لعل الكثير يعلم أن البرازيل كدولة معاصرة لم تتشكل على أساس وحدة العرق والدين واللغة. فاللغة البرتغالية التي جمعت البرازيليين ووحدتهم هي لغة المستعمر. والسكان الأصليون أصبحوا يشكلون أقلية مقارنة بالأعراق البشرية التي استوطنت البرازيل قادمة من مشارب عدة، وآمنت بمعتقدات دينية مختلفة. إن الرابط السحري الذي صهر كل هذه الأعراق وأعطاها هوية واحدة، ليست الجريدة المصورة في التلفزيون البرازيلي ذات المنشأ الحديث، رغم أهميتها. لقد أسهمت فيها، بفاعلية كل المنتجات الرمزية: الأغاني والموسيقى

---

[1] -استعمل هذا المصطلح الباحث باتريك شارودو- أنظر:

Annik Dubied (2000) : Rencontre avec Patrick Charaudeau, revue médiatique, Récit et Société, N 20- Juin

والرقص،والرسم، والمسلسلات التلفزيونية وأفلام السينما، والأدب وفنون السرد الشفهي، وكل أشكال الفلكلور....

كان النقاش حول وسائل الإعلام و تأثيرها المؤكد والحاسم على الهوية والثقافة الوطنية أسير الرؤية الوظيفية التي تمنح لوسائل الإعلام الكفاءة اللازمة للتأثير المباشر على الأشخاص وهوياتهم، وظل سجين الرؤية المعيارية الضابطة للثقافة الجماهيرية التي جاء بها رواد مدرسة فرنكفورت (school Francfort) ومجددوها؛ بمعنى أن الهوية كانت تبرز ككائن ساكن ومتجانس وضعيف، ووسائل الإعلام تمارس تأثيرها الأحادي القوي وغير المحدود عليها.

لقد رأى الباحث البريطاني فيليب شلنسنجر (Phillip Schlesinger) أن العلاقة بين وسائل الإعلام والهوية تحتاج إلى رؤية مغايرة، وطالب بإعادة النظر في النقاش المذكور بالشروع أولا في التساؤل عن ماهية هذه الهوية الوطنية أو تلك، وعلى ضوء الإجابة تحلل أهمية وسائل الإعلام و الاتصال في تشكلها أو " إنشائها المستأنف".[1]

لتبسيط هذه الرؤية، أكثر، يمكن القول أن الاكتفاء برؤية التلفزيون ومفعول برامجه المختلفة على الهوية التي تصور في حالة ساكنة ومنغلقة على ذاتها، يعدّ بمثابة إضافة الماء إلى البحر، بمعنى أنه لا يقدم جديدا لما هو معروف منذ عدة عقود من الزمن، بل يمكن أن يظلل النظر للعلاقة القائمة بين التلفزيون والهوية إن لم يضللها للاعتبارات التالية:

1- تعتبر هذه الرؤية لا تاريخية إذ تتعامل مع التلفزيون في صيغته المنفردة والمتجانسة، وتتجاهل التطور الذي عاشه في العديد من مناطق العالم، والذي اتسم بانتقاله من مرحلة التلقين والتربية إلى مرحلة إشراك المتلقي ضمن

---

[1] - Philip Schlesinger)1990(: « L'identité nationale. De l'incantation à l'analyse, Revue ; Hermès, France ; n°8-9.

معادلة جديدة في التواصل يتجرد فيها الصحافي- المذيع من دور الناطق الرسمي باسم المؤسسة ليقوم بدور المحاور والمتصل. ولا تأخذ بعين الاعتبار البروز الملفت للنظر للقنوات التلفزيونية الغرضية (المتخصصة) وتفتيتها للجمهور، وإسهامها في إحداث تراتبية ثقافية قد تلتقي، بهذا القدر أو ذاك، مع التراتيبية الاجتماعية مما ينبئ بتباين التمثل الاجتماعي للهوية.

2- إذا سحبنا هذه الرؤية على المشهد التلفزيوني العربي فنجدها تقفز على الاختلافات بين القنوات التلفزيونية المتعددة، وتظهرها وكأنها تصب في وعاء واحد بمضامين واحدة ذات مفعول واحد مؤثر، بشكل حاسم، في تفكيك الهوية أو إعادة بنائها؛ بمعنى أنها لا ترى أي دلالة للاختلاف القائم بين قناة روتانا طرب، وقناة " جرس" وقناة " المنار" التابعة لحزب الله، وقناة "اقرأ" التلفزيونية، على سبيل المثال، ولا تلمح الفرق بين القنوات التلفزيونية التي كان يعتقد أنها شديدة التقارب، مثل التلفزيون المغربي والجزائري على سبيل المثال. فالتلفزيون المغربي (2M)، الذي يبث باللغتين العربية والفرنسية، يخصص وقتا أكثرا لبث الإنتاج الثقافي المغربي: المسرحيات، الفرق الموسيقية والغنائية. ويشرك قطاعا واسعا من الباحثين والمؤرخين والمثقفين والصحافيين للكشف عن الجوانب المجهولة في التاريخ الفني والموسيقي، والسينمائي، والمسرحي والأدبي للمغرب. و حتى برامج الطبخ التي يبثها تجوب مختلف المناطق المغربية لإحياء الطبخ الشعبي ونفض الغبار على بعض الأكلات الشعبية التي غارت في الذاكرة الشعبية. بينما التلفزيون الجزائري لا يبث حتى المسرحيات الجزائرية القليلة التي حصلت على جوائز التقدير! أما الغناء والطرب والفنون الشعبية فمن النادر أن تتجاوز إطار الاستعراض أو الاحتفال، ولم تشكل مادة للنقاش والرصد الثقافي من طرف المؤرخين، والدارسين والنقاد والفنانين. إن الجمهور الجزائري في الخارج يكتشف بدهشة سارة

نوعية المادة الثقافية والفنية التي تقدمها بعض الفرق الشابة المختصة في الموسيقي الشعبية، والغناء، الرقص الشعبي... المغمورة في أرجاء الجزائر أثناء جولاتها خارج الوطن، بينما يجهل أغلب الجزائريين وجودها أصلا.

3- إن الرؤية المذكورة تسقط من حسابها القوى الفاعلة والمؤثرة في رؤية التلفزيون للهوية في المنطقة العربية. لقد ظلت الدولة القوة الوحيدة المنظمة التي تملك سلطة الحديث عن الهوية عبر التلفزيون قبل التسعينيات من القرن الماضي، وتقدم الوشائج الرمزية المتلفزة التي تجمع المشاهدين، بل لم تكن تتعامل مع هؤلاء على أساس أنهم مشاهدي تلفزيون، بل تخاطبهم باعتبارهم مناضلين أو " قوى شعبية". لكن الوضع تبدل، ومكانة التلفزيون القانونية تغيرت في المنطقة العربية، وتدخلت العديد من القوى المالية والاجتماعية والسياسية لترفع الاحتكار عن التعبير عن الهوية تلفزيونيا، لتقدم تصورها " للوعي المتجدد بذاتها" عبر أكثر من قناة تلفزيونية وأكثر من منبر ثقافي.

4- إن الرؤية المذكورة تعزل التلفزيون "الوطني" عزلا تاما عن المنظومة الثقافية لمنتجي برامجه أو متلقيها، بمعنى أنها لا تتعامل مع بعض المضامين التي يبثها كجزء من المنتج الثقافي الوطني. وبهذا تفصل فصلا تاما بين الواقع الرمزي الذي تمثله وسائل الإعلام، والتلفزيون تحديدا، والواقع الموضوعي العيني.[1] فهل أن تنظيم حفل غنائي في ملعب رياضي يختلف من ناحية الجوهر في تفعيل الإدراك بالهوية أو تغيبه عن نقله عبر التلفزيون؟

---

[1]- للإطلاع أكثر على الواقع الإعلامي والواقع الموضوعي العيني- أنظر:
عبد الرحمن عزي: الواقع والخيال في الثنائية الإعلامية (1994): المستقبل العربي، بيروت، عدد 182 - أبريل

5- تُحمّل هذه الرؤية التلفزيون مسؤولية كل الصعوبات التي تعاني منها الهوية في التعبير عن ذاتها، وفرض وجودها بتفاعلها مع بقية حواملها الاجتماعية. إن الحد من تعدد الزوجات بطريقة شرعية ظاهرة متجذرة لدى سكان الصحراء في المغرب العربي، ولدى قبيلة الرقيبات تحديدا، على سبيل المثال، إذ يشترط العديد من أبنائها من الزوج أثناء عقد الزواج الالتزام بمقولة: (لا سابقة ولا لاحقة، وإذا حدث فأمر الزوجة بيدها)؛ أي يجب أن لا تكون له زوجة سابقة وألا يتزوج بزوجة أخرى بعدها. إن المرأة في هذه المنطقة تتمتع بقدر كبير من الحرية، وتساوي الرجل، إذ تتعلم منذ الصغر شأنها شأن الذكر، وتقوم بما يقوم به الزوج أثناء غيابه، وتدير شؤون خيمتها.. هذه الحقيقة قادت الجغرافي الفرنسي Camille Douls إلى التأكيد، في منتصف القرن 19، على وجود قواسم مشتركة بين المرأة في هذه المنطقة والمرأة الأوروبية في وضعيتها الاجتماعية كما شرعتها المؤسسات الحديثة. على كل حال لم يغامر أي باحث جاد في الانثروبولوجيا ويربط التلاشي التدريجي للمجتمع الأموسي في هذه الرقعة من الوطن العربي بتأثير التلفزيون، مستبعدا العامل الاقتصادي والاجتماعي الذي أدى إلى حدوث تغيرات داخل بنية الأسرة في هذه المنطقة.

إن الرؤية المذكورة تدرج الصعوبات، التي تعاني منها الهوية في تأقلمها مع مستجدات العصر، في خانة المسكوت عنه أو اللا مفكر فيه والمتمثل في دور الفرد أو الجماعات في صياغة المعنى مما يشاهدون في التلفزيون والسلوك الذي يسلكونه على ضوء أفق المعنى المقترح، وشكل إدارته ضمن محيطهم اليومي. لتقريب هذه الفكرة أكثر من الفهم يذكر الباحث تومتوا بمبريج Tamatoa Bambrige [1] أن التلفزيون قد تم استملاكه من طرف أبناء منطقة

[1] - Tamatoa Bambridge (2001) : Traditions en mutation, le développement des médias en Polysénie française, l'année sociologique, France, Puf, février Vol.51

بولينزني الفرنسية بالمعنى التقليدي، حيث كانت صوره موضع مسار من الاستبعاد (Distanciation)، ليس بالمفهوم البريختي، بل الاستبعاد النقدي التي تتجلى مظاهرها في الضحك أو السخرية أو الرقابة الاجتماعية. إن هذا المسار يغذي التقاليد أكثر مما يبعثرها .هذا في المناطق الريفية. أما في المناطق الحضرية التي تعاني بنيات هويتها من الوهن، فإن تقمص الخطاب الذي يروجه التلفزيون كان أكثر وضوحا وأسهم في تغيير علاقة المجتمع البوليزيني بالثقافة. ويستخلص الباحث من هذا المثال أن استملاك أو استبطان البرامج التلفزيونية تتم وفق أولوية الثقافة البوليزينية التي تتدخل في تغيير ظروف تلقى ما تبثه وسائل الاتصال الجماهيري.

إن بث الصور التلفزيونية التي لا تنتمي إلى العالم الرمزي للجمهور لا تستلزم أبدا انخراط هذا الأخير في هذه الصور أو تبنيها. هذا ما تؤكده لنا تمثلات برامج تلفزيون الواقع عبر الثقافات[1] ويفسر لنا التباين مستويات تداعيات برامج القناة التلفزيونية الواحدة، ولتكن القناة اللبنانية LBC على الحياة اليومية في صنعاء والرياض وبيروت ، بل في مناطق داخل الدولة الواحدة، مثل الجزائر العاصمة ومحافظة تندوف أقصى الجنوب الغربي الجزائري.

كما أن النظرة التي تحمل التلفزيون مسؤولية الصعوبات التي تعاني منها الهوية، لا تساعد الدارس في فهم سر الإقبال الجماهيري المتزايد على البرامج التلفزيونية الدرامية المحلية أو الوطنية. إن مبرمجي القنوات التلفزيونية في العديد من دول العالم مازالوا يراهنون على هذه البرامج ويمنحونها الأهمية اللازمة في شبكة برامجهم، ويبثونها في ساعات الذروة Prime Time ، بل

---

[1]- برامج تلفزيون الواقع في المنطقة العربية بين التجانس الثقافي والنسبية الثقافية (2008) أنظر: " ثورة الصورة: المشهد الإعلامي وفضاء الواقع" مؤلف جماعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت (ص 137- 173)

تحولت إلى " ذخيرة حية" في حرب المنافسة بين القنوات التلفزيونية. وتخفي النظرة المذكورة ما تمارسه الهوية الوطنية من تأثير على بعض القنوات التلفزيونات الوطنية. لقد بادرت بعض هذه القنوات ببث بعض البرامج التي أطلق عليها تسمية " برامج تلفزيون الواقع الإسلامية" من باب التأكيد على خصوصية التلفزيون ومتلقيه. كما قامت بعض القنوات التلفزيونية بإنتاج رسوم متحركة (أفلام الكارتون) مستوحاة من التراث الثقافي العربي أو من البيئة الثقافية المحلية، ولقيت استحسانا كبيرا من طرف الجمهور والنقاد.

على ضوء هذا النموذج النظري العام Paradigm، الذي يقتضي الانطلاق من الهوية لفهم جدلية تفاعلها مع التلفزيون، نصوغ مجموعة من الأطروحات التي تروم الابتعاد عن المسلمات، وهي كما يلي:

الأطروحة الأولى: تبدو الهوية العربية الإسلامية كبنية في غاية التعقيد إلى درجة يصعب تحديدها، ليس لتداخل مكوناتها: الوطني والقومي والإثني والديني فحسب، بل لكونها تعكس تنوع الشعوب التي تعترف بانتمائها إليها أو تشعر به، والذي يتجلى في تعدد لهجاتها المحكية، وتباين ثقل اللغات الأجنبية المختلفة (الانجليزية، الفرنسية، الاسبانية..) في تواصل أبنائها العلمي والعملي في حياتهم الاجتماعية، واختلاف تجاربهم التاريخية، واتساع الرقعة الجغرافية التي يعيشون فوقها وما ترتب عنها على صعيد نمط المعيشة والأمزجة، و اختلاف المدارس العقائدية والمذهبية وتأثيرها على العلاقات الاجتماعية والممارسة السياسية. لقد وصف أحد المستشرقين الجدد [1] امتدادات هذه

---

[1]- يقصد بها كريستيان ترول- أنظر دراستها المعنونة: الفكر التقدمي في الإسلام المعاصر: نظرة تقدمية، ترجمة: حامد فضل الله، (2007): المستقبل العربي،بيروت، عدد 340 – حزيران/ يونيو

المدارس في الحياة اليومية بـ"الإسلام الثقافي". فيمكن الإشارة، من باب التوضيح، إلى ذاك التنوع، الذي يراه البعض اختلافا، في قلب الإمبراطورية الإسلامية بين الأتراك وخلفاء الدولة العباسية حول موضوع المرأة: ففي حين كان الأتراك لا يترددون في منح مناصب إدارية حيوية للمرأة، تمس مباشرة إدارة دواليب أجهزة الدولة، ظل خلفاء الدولة العباسية يرفضون ذلك. وقد ترك هذا التنوع ظلاله على موقع المرأة في الحياة العامة إلى غاية القرن التاسع عشر. ففي تركيا صدر القانون الذي ينص على إلزامية تدريس الذكور والإناث إلى غاية بلوغ 12 سنة في العام 1869، بينما ظلت بعض الدول العربية الإسلامية ترفض إلزامية تدريس الإناث إلى غاية المنتصف الثاني من القرن العشرين.

مهما تعددت أوجه الثراء والتنوع في الثقافة العربية الإسلامية فلا تهدد قاسمها المشترك. لكن طغيان الهاجس الإيديولوجي على الرؤية للهوية العربية الإسلامية محا كل مؤشرات تنوعها وتعددها، وأبرزها في صورة متجانسة وثابتة. وبهذا حمّل وسائل الإعلام التي تعبر، بهذا القدر أو ذاك، عن هذا التنوع مسؤولية تعريض هذه الهوية إلى التفكك والاندثار.

كما أن قيام بعض الفضائيات، التي تزعم أنها تتوجه إلى المشاهد العربي حيثما يوجد، بالبث بهذه اللهجة المحلية أو تلك، أو الاستعانة بلغة أجنبية على حساب اللغة العربية الفصحى، والتركيز على هذه الدولة العربية أو تلك (تاريخها، مؤسساتها،وفنانيها، وحياتها السياسية والثقافية والرياضية...) يعزز الشعور بمحاولة اختصار الهوية العربية في البعد الوطني فقط، والسعي للقضاء على ثرائها وتنوعها.

الأطروحة الثانية: يبدو أن الهوية العربية الإسلامية أصبحت تعيد إنتاج خصائصها الجوهرية بدرجة أضعف من عملية ضم العناصر الجديدة من الثقافات الأجنبية أو الثقافة الكونية التي حل الكثير منها محل العناصر النابعة من

هذه الهوية. هذا ما يتجلى في تزايد مكانة اللغات الأجنبية في المجتمعات العربية، وانتقالها من أدوات تعبير إلى أنماط معيشية، والتحلي بقيم جمالية بديلة، إضافة إلى الموسيقى، والغناء والرقص، ومواد الزينة والتجميل، واللباس، والأكل والشرب، وغيرها من مظاهر السلوك الاجتماعي. لعل وسائل الإعلام المعاصرة، خاصة التلفزيون، يبدو أكثر تأهيلا لإدخال العناصر الجديدة المذكورة واستبدال القديمة، وذلك لمقدرته على نقل الصور ودسها في روتين الحياة اليومية وتذويبها في الواقع المعاش.

يمكن تفسير عجز الهوية العربية الإسلامية عن تجديد ذاتها بعاملين تاريخيين:أولهما القطيعة الأنطولوجية التي حدثت في الحضارة العربية-الإسلامية، فما وصل من تراثها المكتوب: شعر، بلاغة، وفقه، وتصوف، وفلسفة، الذي يعتبر ناقلا لبعض أوجه الهوية إلى الأجيال الحالية، يعد قليلا. ونشر في الفترة الممتدة من 1850 إلى1930 التي شكلت مرحلة الانتقال من نمط الاتصال الشفهي إلى المكتوب[1]، وتحقق بنظرة انتقائية واقصائية تتماشى ورغبات القوى السياسة التي أشرفت عليه. هذا إضافة إلى تراجع مكانة النمط المكتوب في ثقافة الأجيال الجديدة، وعدم المقدرة على إحداث التلاؤم بين ما وصلنا من تراث مكتوب والحياة اليومية ومتطلباتها. وثانيهما، أن الحامل البشري لهذه الهوية قد خضع للظاهرة الاستعمارية أو كان ضحية لها. وبخضوعه شاعت العبارة المعروفة التي اكتسبت قوة القول المأثور:"المستعمَر مولع بتقليد المستعمِر".

---

[1]- على أومليل: الخطاب التاريخي، دراسة لمنهجية ابن خلدون- معهد الإنماء العربي، لبنان، بدون تاريخ، ص 23

نعتقد أن العاملين يملكان مقدرة تبريرية أكثر منها تفسيرية لهذه الظاهرة، بدليل أن المجتمع الجزائري الذي عاش تحت نير الاستعمار لمدة تزيد عن القرن لم ينصهر في الثقافة الاستعمارية، وظل متمسكا بهويته أكثر مما هو عليه الآن بعد ما يربو عن نصف قرن من نيل استقلاله!

إن المسألة إذا، ترتبط بوضع الأمة العربية الإسلامية التي عانت من الانتكاسات والهزائم فكفت، في اعتقادنا، عن إنتاج ما يشحذ طموح الأجيال الجديدة، ويشكل مصدر حلمها وأمالها، ويثري مخيالها، فانكفأت على الماضي للاحتماء به، أكثر من مواجهة الحاضر وتحدياته.

إن الخوف على الهوية ينبع من إحساس، يحتاج إلى تأكيد، بأن هذه الهوية لم تعد تملك قيمة مرجعية أساسية وقوية للحكم والتفاعل مع ما تبثه القنوات التلفزيونية العربية والأجنبية. لقد أكدت البحوث الاجتماعية على أن ما تتضمنه الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والبرامج اللهوية لا تدرك معانيه ودلالاته إلا على ضوء الخلفيات الثقافية والاجتماعية والفكرية للمتلقي. لذا نلاحظ أن المسلسل التلفزيوني الأمريكي "دالالس الذي ذاع صيته، أكتسب أكثر من معنى ودلالة بتعدد المرجعيات الثقافية للمتلقي. فإذا كانت المرجعيات الثقافية العربية- الإسلامية قد بدأت بالتراجع فهل تستطيع الاستمرار في استجلاء معاني المواد الثقافية التي تطفح في القنوات التلفزيونية الأجنبية، واستبطان متخيلاتها، دون الاستعانة بالمرجعيات "الجديدة" الدخيلة التي "يشتد عودها" من يوم لأخر؟ وهل أن استجلاء معاني المواد الثقافية الطافحة في التلفزيون المحلي والأجنبي يعزز روح الهوية الوطنية؟

الأطروحة الثالثة:إن المجتمع، بمختلف مؤسساته، المالك لمقومات التجديد والتطور لا يخشى من الذوبان في هوية أخرى أو الاندثار. إن الهند، على سبيل المثال، القوية بتعدديتها والثرية بلغاتها (تملك 1562 لغة محكية، و76

لغة تدرس في المدارس الهندية)، وبدياناتها (توجد بها ستة توجهات دينية) [1] وأساطيرها، ومعتقداتها، وتقاليد سردها الشفوي، وأنظمتها المعمارية والطبية والزراعية وممارستها الثقافية، لم تشعر بأي قلق على مستقبل هويتها. فالسينما التي دخلت إلى الهند في الوقت الذي شهدت أوروبا ميلادها رسخت، بسرعة، في التقاليد الثقافية الهندية، وتحولت إلى رافد أساسي لبقية المؤسسات الثقافية: الإذاعة، التلفزيون. ووسعت بعض الممارسات الثقافية وأثرتها، مثل الغناء، والموسيقى والرقص الفولكلوري. ورغم الهيمنة الثقافية الأمريكية في مجال السينما، التي اشتكى من أضرارها أكثر من بلد صناعي متطور، لم تشعر الهند أبدا بأن إنتاجها السينمائي مهدد من قبل سينما هوليود. [2]

إن هذا الوضع سمح للهند واليابان، وبعض الدول الأسيوية القليلة، بتبن سياسة منفتحة على المنتج الثقافي الأجنبي، خلافا للدول التي تبنت نظاما من الحماية لمنتجها الثقافي تحت مسمى: الاستثناء الثقافي، مثل فرنسا، وكندا....

إن قوة الهوية تمد المنتمين إليها بنوع من الثقة بالنفس والاعتزاز في تعاملهم مع الثقافات والحضارات الأجنبية. فالمادة السمعية البصرية التي تحمل تصورا وقيما أقوى من قيم " مستهلكها" ستنهى، في أخر المطاف، إلى فرض ذاتها عليه. لعل هذه الحقيقة تساعدنا في فهم سبب عدم تأثر اليابانيين، وحتى رفضهم للمسلسل التلفزيوني الأمريكي المذكور أنفا، والذي اخترق القارات

---

[1] - Mira Kapil Desai (2002) : La télévision indienne dans l'ère de la mondialisation :
Unité, diversité ou disparité ? Traduit de l'anglais par Catherine Martin, Quaderns del CAC : (Conseil de l'audiovisuel de Catalunya- Numéro 14 sep décembre

[2] - Idem

قبل البث التلفزيوني المباشر، وتحول إلى " صنم" في وثنية المنتج السمعي-البصري.[1]

الأطروحة الرابعة: إذا اتفقنا مع ما ذهب إليه البعض في تأكيدهم على أن الهوية تطرح في الغالب في صيغة بعيدة عن أي نفعية، وتستدعي مفاهيم ومعانٍ مبدئية ''لا أداتية''، ناظمة للفعل الاجتماعي والسياسي[2]. فكيف تستطيع العديد من وسائل الإعلام، والقنوات التلفزيونية، تحديدا، خدمتها و تطويرها، دون أن تزعزعها أو تكيفها وفق متطلبات السوق؟

إن اقتصاد السوق قد غمر قطاع الإعلام والثقافة، وبدأ بـ " تحريره" من منطق الخدمة العمومية، بعد أن " أُجبرت" الدول على إعادة النظر في دورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، والتسليم بمقدرة السوق على تنظيم الإنتاج والتوزيع الثقافي والإعلامي. فالسوق كما يرى الكاتب أكتوفيو باتز Octavio Paz تملك النجاعة لكنها تفتقد الوعي والرحمة. والنتيجة التي ترتبت على هذا الأمر أن الفيلم، والمسلسل التلفزيوني، والفيديو كليب، وغيرها من المواد التي يعرضها التلفزيون تسلعت؛ أي أصبحت سلعة تستمد قوتها ومبرر وجودها من قيمتها التبادلية. ليس هذا فحسب، بل أن القيم والمثل والتصورات التي تحملها هذه المنتجات قد تسلعت بدورها. إن التضحية، والنخوة، والعاطفة النبيلة، أصبحت، كغيرها من القيم، تملك قيمة تجارية أكثر منها إنسانية في برامج "

---

[1]- لم يكلل مشروع إنشاء حديقة " ديزني لاند" في اليابان بالنجاح. والسبب في ذلك يكمن في الإجابة على هذا السؤال. ماذا تضيف هذه الحديقة لليابابي من دهشة وسخر وهو الذي تغذى منذ صغره على الأساطير التي تفيض سحرا وغرابة؟ وهو الذي يعاني من إشباع في السرد الشفهي الذي ملأ مخيلته؟

[2]-الطيب بوعزة (2007): رؤية نقدية ... دلالات مفهوم الهوية في العلوم الإنسانية ، الملحق الثقافي لصحيفة الخليج الإماراتية ، الصادرة يوم 21آبريل

تلفزيون الواقع"، التي استشرت في المشهد التلفزيوني العربي والأجنبي. إن حمى المنافسة بين القنوات التلفزيونية التجارية وما أفرزته من سياقات قد دفعت إلى التعامل مع المثل والتصورات وكأنها مواد إعلانية. و"استنبتت" قيما جديدة، وأعطت محتويات عدوانية وعنيفة للقيم القديمة من أجل توسيع دائرة الفرجة التي أصبحت مرادفا للربح المادي.

إن التناقض بين المنطق " اللا نفعي" الذي يحرك الهويات، والمنطق النفعي والربحي الذي يتحكم في " رقاب" القنوات التلفزيونية قد يؤدي إلى الخوف على الهويات التي لا تملك طاقة كبيرة على التجديد والمقاومة، أو الخوف من الهويات التي تصطدم مع المنطق النفعي وتختار المقاومة وحتى التمرد والانفصال عن المنظومة الثقافية والسياسية المهيمنة. وإذا أردنا تجاوزا أن نتخطى وضع الاصطدام ومن باب التأكيد على أن المرء في أموره ما تعود، يمكن القول أن " العقل العربي" تعود على تصور الهوية في عصر التلفزيون الذي يخضع لمتطلبات الخدمة الإعلامية والثقافية وليس السلعة. لذا من المفروض أن يرتقي في فكره لعقلنة السلعة من جهة، وقراءة تأثيرها على مكونات الهوية ورهاناتها من جهة أخرى.

الأطروحة الخامسة: إذا آمنا بدور الذاكرة في بناء الهوية، كما أوضحنا أنفا، فإن القنوات التلفزيونية تجنح نحو إنهاكها. فالنقلة النوعية التي حدثت في المجال الثقافي بفضل البث التلفزيوني المباشر قد قلص وجود ثقافة الرأي" Culture éditoriale " لصالح توسيع رقعة تدخل " الثقافة الطافحة" " Culture du flot التي يستولي اللهوي والاستعراضي على مكوناتها. إن ثقافة الرأي التي مدت التيارات السياسية والثقافية بأطر فكرية وحركت الطبقة السياسية والمجتمع المدني بمؤسساته المختلفة، ووحدت انشغالات الفنانين، والكتاب والشعراء، والرسامين والتشكيلين، والموسيقيين، وعمال السينما، تقوم على مبدأ التراكم

والاستمرارية اللذان لا يحدثان إلا عبر الزمن والذاكرة الجمعية. فهذه الثقافة تكاد أن تنسحب تاركة المجال لسيطرة الثقافة الطافحة التي تتكئ على نمط الاتصال البصري، والتلفزيوني تحديدا، وتنتمي إلى ما هو ظرفي يتسارع تحت إيقاع الحياة المعاصرة وضغط تكنولوجيات الاتصال التي تلغي الفاصل الزمني الذي يبعد بين البشر. إنها ثقافة اللحظة التي لا تملك ذاكرة ولا انتماء ولا وعي اجتماعي ولا فكر نقدي، و ثقافة الاستعمال المؤقت " Culture jetable "، على حد تعبير الكاتب جيرارد بوشارد (Gérard Bouchard) [1]

فكيف تتعامل الهوية الوطنية مع هذه الثقافة التي تُطلِّق الذاكرة، ويشعر حاملها البشري أنه متحرر من الماضي بكل ثقله، ومن التجارب الجماعية، وطليق اليد في ولائه للمكان ووشائجه الاجتماعية والعاطفية: الجماعة، الأمة..

الأطروحة السادسة: إن المفاهيم المرتبطة بموضوع الهوية مثل: الأمة، الوطن، الثقافة، الاتصال، التلفزيون... تنتمي إلى حقول في غاية الديناميكية: الاقتصاد، والتكنولوجية، والسياسة، وتطورها يتخذ سمة وظيفية أو معيارية ضابطة. لذا أصبحت تغطي واقعا جديدا يختلف على ما تألفنا معه وسلمنا بوجوده. ففي ظل التكتلات الإقليمية والقارية على مختلف المستويات، تراجع مفهوم الدولة والوطن والأمة كما عاشتها البشرية في القرن التاسع عشر والمنتصف الأول من القرن العشرين، ليحل محلها كيان قاري جديد ذو توجهات ومثل أكبر من الدولة الواحدة. وتعدى مفهوم الهوية الوطن الواحد، وأصبح مرتبطا بعدة أوطان. هذه ما تعبر عنه " الهوية الأوربية" على سبيل المثال. وعلى هذا الأساس لم تعد المواطنّة مقترنة بوطن بعينه أو مرتبطة بإقليم

---

[1] - Gérard Bouchard (2002) : Un monde à repenser, la crise des imaginaires, la mondialisation et les petites nations colloque Panaméricain Industries culturelles et dialogue des civilisations dans les Amériques , GRICIS, Montréal, du 22-24 avril

محدد. و المكان تماهى في امتداداته بعد أن اختزلت المسافات وتوحدت التشريعات في المجال الجمركي، و برامج تلفزيونية بعينها اكتسحت الفضاءات الخاصة والعامة في العديد من الدول، بصرف النظر عن لغتها، وثقافتها ونظامها السياسي، بعد أن شرعت التلفزيونات الوطنية والدولية في " استيراد" أفكار البرامج، و قوالبها " فورماتها" Format، مثل: برامج " تلفزيون الواقع"، بجانب استيراد المواد التلفزيونية الجاهزة للبث.

حقيقة، يحاول بعض الباحثين أن يخفف من روع بعض الساسة والمثقفين والمربين من هذا الضرب من الاستيراد ودوره في تحريك مخيال المشاهد، بالقول أنه يتيح المجال للخصوصية الثقافية والاجتماعية من التعبير عن ذاتها، مثلما هو الأمر في الطبعات المختلفة لـ " تلفزيون الواقع" كبرنامج " الأخ الأكبر "Big Brother "، على سبيل المثال[1] . بالفعل، إن القراءة الأولى لهذه البرامج تؤكد اختلاف طبعاتها عبر التركيز على التفاصيل، مثل: عدد المتنافسين، قيمة الجائزة التي يحصل عليها الفائزون، اختيار المتنافسين وفق مبدأ التمثيل الاجتماعي والثقافي والعرقي لشرائح المجتمع، كما هو الأمر في البرازيل أو إفريقيا الجنوبية، لكن القراءة الثانية تحفز أكثر على التساؤل: هل تلغي هذه التفاصيل، على أهميتها، فلسفة الحياة والتصور للعلاقات الاجتماعية الجاثمة في الفكرة الأساسية التي استمدت منها هذه البرامج وجودها؟

الأطروحة السابعة: إذ كانت الهوية الوطنية لا تتكئ على الإعلام المتلفز فقط ، دون سائر المنتجات الرمزية في تطورها وتجددها، فلا يمكن أن نغفل دوره أو نقلل من شأنه. فإذا تحررنا من سطوة أسطورة الموضوعية التي تعتم الرؤية للبرامج الإخبارية التلفزيونية، ومثيولوجية المرآة العاكسة بدقة

---

[1] - Elodie Kredens (2006) : La téléréalité entre adaptabilité des formats et spécificités nationales, le cas de l'émission « Big Brother »- Colloque International « mutations des industries de la culture de l'information et de la communication »France, septembre

للواقع التي التصقت بالجرائد التلفزيونية، فإننا ندرك أن هذه الأخيرة تقدم هذا الواقع كبناء ذاتي يتجلى في تمثل ما يعتقد أنه الواقع بعد تبسيطه و اختزاله. إن مقدرة هذه الجرائد تكمن في مزجها بين الإعلام والوساطة الاجتماعية sociale La médiation، لكن حول ماذا تتم هذه الوساطة في الجرائد التلفزيونية العربية؛ أي ما هي مادتها؟

إذا كان من اليسر التأكيد على أن الحيز الجغرافي والاجتماعي والسياسي الذي تغطيه هذه الجرائد قد اتسع بفعل التطور التكنولوجي، وبتزايد مصادر الأخبار وتعددها، فإن هذا التوسع جرى ويجري في اتجاه الخارج وليس نحو الداخل! أي ليس داخل الدولة أو المجتمع الواحد.

يشتكي الكثير من المهنيين أن القنوات التلفزيونية العربية لا تعرف ما هو الخبر المحلي أو الوطني، بدليل أن هذا الخبر يقتصر على إبراز تحرك الهيئات الرسمية ومسؤوليها فقط. وعندما تشح الأنشطة الرسمية في موسم الإجازات الصيفية تضطر الجرائد المصورة العربية إلى افتتاح طبعتها بالأخبار الدولية وإلغاء الأخبار الوطنية برمتها، وكأن لا شيء يحدث في هذا البلد العربي أو ذاك. إن تحليل هذه الحقيقة لا يقودنا إلى غياب الـ "نحن"، التي من المفروض أن تقدمها الأخبار الوطنية، أمام الـ " هم" الذين يسجلون حضورا طاغيا في الجرائد المصورة، بل يؤكد على اختصار الـ " نحن" في الأنشطة الرسمية فقط. وبهذا يتم تغييب كل ما يعتمل في ثنايا المجتمع (مشاكل وصعوبات، انجازات، أمال وطموحات، خيبات وانكسارات...) فأي هوية هذه تصنع في ظل تغييب المجتمع الذي يعد حاملها الديناميكي ومعمم مكوناتها ومرسخها. ويمكن القول بعبارة أخرى أن علامات الهوية التي تنقلها الجرائد المصورة تتمثل: في العلم، والنشيد أو السلام الوطني، اجتماعات مجلس الوزراء والمجلس النيابي، وممثلي المؤسسات الرسمية.... وهي أقرب إلى

رموز الدولة، أو لنقل تجاوزا أنها تختزل الهوية في بعدها السياسي. وهذا يحيلنا إلى إعادة ما سبق وأن طرحناه في لقاءات علمية سابقة [1]، ويتلخص في القول أن القنوات التلفزيونية العربية قد انخرطت، لأسباب تاريخية وأخرى سياسية راهنة، في إشكالية بناء دولة وليس بناء مجتمع.

إن التاريخ المعاصر قد برهن على أن بناء دولة ما، خاصة إذا كانت فتية قد يؤدي إلى طريق مسدود، ، حتى وأن كلل بالنجاح، في ظل غياب التفكير في بناء مجتمع، وذلك لأن أي هزة تتعرض لها مؤسسات الدولة، أو محاولة تفكيكها قد تؤدي إلى تفكيك المجتمع.

إن القنوات التلفزيونية العربية التي انخرطت في إشكالية بناء دولة دون الاهتمام بإشكالية بناء المجتمع قد سلمت قطاعا واسعا من الجمهور إلى القنوات التلفزيونية الضحلة التي تترصد ذكاء المشاهد وعواطفه.

قد يقول قائل إن ولوج الحياة الخاصة في الفضاء العمومي في المنطقة العربية بفضل التلفزيون، وبرامج " تلفزيون الواقع " تحديدا تشكل الاسمنت الذي يصقل الهوية الوطنية ويثريها. إن قيمة هذا الرأي تكمن في توجيه نظر الباحثين إلى أهمية الذاتي والحميمي في صياغة أو إعادة صياغة الهوية الفردية، ومن ثمة الجماعية أو الوطنية، بيد أنه بحاجة إلى فحص ونقد في النسق الثقافي للمجتمعات العربية.

لقد بدت أثار صعود البرجوازية في الدول الغربية تتجلى في المجالات الاجتماعية والثقافية والحقوقية ونجم عنها الفصل الواضح بين الشأن الخاص والعام، بينما لم يتم الفصل بين هاذين المجالين بكل وضوح في المنطقة

---

[1] - نصر الدين لعياضي2001( ): وسائل الاتصال الجماهيري، القاعدة والاستثناء ، سلسلة كتاب الرافد، الدائرة الثقافية للشارقة ، ص 78

العربية، لذا يخشى أن تشكل " الحياة الحميمية الخاصة" التي يستعرضها برامج تلفزيون إلى مدخل للعب مع الواقع وبه، وليس تأمله ومناقشة دلالاته في بناء الوعي بالذات الجماعية، وذلك لأن الثقافة الغربية تشكلت في ظل النقد والنقد الذاتي، واكتسبت الحيوية والتجدد انطلاقا من توسيع أطر ممارسته. بينما غيب النقد وقبول الاختلاف في الثقافة العربية، حيث يتحول الخلاف في الرأي، بسرعة، إلى نزاع. و ينتهي، في الغالب، إلى إقصاء وتهميش مما يشجع الثقافة العربية على الانغلاق على ذاتها.

الأطروحة الثامنة: إن الرؤية للتلفزيون في الدول العربية من الكوة السياسية لم تجدد التفكير في مكانته الاجتماعية في الفضاء الثقافي العربي، ولم تسهم في ترقية أدائه المهني، وذلك لأن الرؤية السياسية تنطلق من فهم ناقص لطبيعة العمل التلفزيوني، وتختصره في النشاط الموضوعي فقط، بينما همزة الوصل بين الهوية والتلفزيون تكمن في التمثلات غير المحررة من الذاتية، والتصورات التي يصعب القول أنها مطهرة من الإسقاطات اللاشعورية، و الصور الذهنية. إن القنوات التلفزيونية العربية لا تتحرك في فراغ، بل في ظل منافسة القنوات التلفزيونية الأجنبية، التي احتلت المواقع المتقدمة في أرضية " الصور النمطية". لذا يمكن القول أن التركيز على إبراز الجوانب الايجابية في حضارتنا أو ثقافتنا لا يفي بالغرض دون التفكير في تطويع الأدوات المنتجة لصورتنا، والتعامل الواعي، غير المزاجي والانفعالي، مع الصور التي تروجها وسائل الإعلام الغربية عن الهوية العربية- الإسلامية، لأن الهوية تتحدد بنظرة الأخر لهويتنا.

كما أن العمل على إنتاج المواد السمعية- البصرية وفق الفكرة المستوردة وبصيغ تعبيرية وتصويرية مشروطة، أو كمادة جاهزة للبث، قد يعجل،

أكثر، في القطيعة بين أشكال التعبير الفني والثقافي الشعبي وأشكال التعبير المرئية المستوردة.

لقد تطورت أساليب التعبير التلفزيوني في العالم إلى درجة أن الجرائد الإخبارية في التلفزيون أصبحت تخضع لمعايير ورؤى الإنتاج الدرامي، بينما ظل بعض الإنتاج الدرامي العربي يرزح تحت ثقل معايير ورؤى الإنتاج الإخباري التلفزيوني! وهذا يزيد في حذر المشاهد منه، ويشك في نواياه. و يمكن القول أن هذا الأمر توارثه المهنيون والقائمون على القنوات التلفزيونية منذ عهد سيادة الحزب الواحد كتنظيم سياسي أو كذهنية، لكن هذا القول لا يغفر استمرار وجوده.

الأطروحة التاسعة: ازدادت القنوات التلفزيونية العالمية ارتباطا بالفاعلين الاقتصاديين والسياسيين في الساحة الدولية، وبدأت تحتل مواقع متقدمة في المنظومة السياسية والإيديولوجية المهيمنة في العالم. وبهذا انصرفت إلى تضخيم الخطر من الطوائف العرقية والثقافية والدينية التي شعرت بوطأة الصعوبات في تكيفها مع التحولات السريعة التي تجري في العالم والتي امتدت أثارها إلى حياتها اليومية. لقد شعر هؤلاء الفاعلون أن هذه الطوائف تشكل خطرا على مشاريعهم ومصالحهم. في ظل هذا الوضع تسابقت هذه القنوات التلفزيونية لإعادة صياغة الوقائع والحقائق وفق المقولة الخاطئة التي ترى أن الشعور بالانتماء لهذه الطوائف يزيد في التوتر السياسي والثقافي بين الشعوب والأمم والدول، بينما الصدمة الثقافية أو الخلاف الثقافي والاصطدام السياسي هو الذي يؤجج الشعور بهذا الانتماء، كما تؤكد النزاعات العنيفة التي جرت مؤخرا في يوغسلافيا سابقا، وليبيريا.[1]

---

[1] - Bertrand Badie (2007): "Il n'existe pas d'ordre territorial idéal", L'intégralité du débat avec Bertrand Badie, Le monde, France 12 juin

إن المطالبة بالتمسك بهذه الهوية الوطنية أو تلك التي تحركها عوامل داخلية وضغوط خارجية، تولد نتيجة تجاهل القنوات التلفزيونية العالمية، ومن ورائها مصادر تمويلها وإخبارها التي تمثلها القوى المالية والسياسية المؤثرة دوليا وإقليميا ووطنيا، مظاهر الغبن والإحباط، والظلم واللامساواة التي يشعر بها المنتمون إليها. وبهذا يتم توجيه التفكير في مسألة الهوية التي تزداد تعقيدا بنوع من الاستسهال والتبسيط الذي توفره الصور النمطية التي تروج لها بعض القنوات التلفزيونية العالمية المتنفذة .

إن التوتر والتشنج الذي يعبر عن حيرة وخوف على الهوية، يتحول بفضل القنوات التلفزيونية وغيرها من أدوات الدعاية، إلى الخوف من الهوية و يجب أن يتم التصدي لها بالأساليب العنيفة وحدها. وبهذا تسهم القنوات التلفزيونية في إحداث الانفصال بين السياسة والإعلام! أو على الأقل تنفي المقولة التي تلح على أن الإعلام هو التعبير المكثف عن السياسة. إن دعوة وسائل الإعلام إلى العنف للقضاء على التوتر المذكور هو القضاء على السياسة (باعتبارها فن التعايش والتعاقد) [1]

بل أن التلفزيون في هذه الحالة يناصب العداء حتى للاتصال. فالدعوة إلى العنف حتى وإن كان لفظيا لا يشجع الاتصال، الذي يعتبر في لغة النحاة فعلا متعديا يعني، من جملة ما يعنيه "، جعل الشيء مشتركا"، والعتبة الأولى والضرورية للحوار والتبادل. (تبادل المعلومات والآراء والأفكار وتدويرها).

الأطروحة العاشرة: كان الاعتقاد السائد، منذ منتصف القرن الماضي، بأن وسائل الإعلام هي بنت البيئة التي تطبع أو تبث فيها فان ديناميكية الواقع فندت هذا الاعتقاد في زمن تزايد فيه التباين بين قدرات الدول في إنتاج صورتها

---

[1] -Idem

الإعلامية، والتلفزيونية تحديدا، وفي عصر تزايد فيه انفتاح البيئة المحلية على العالم الخارجي، وتداخل " الحدث الإعلامي" المحلي والوطني والدولي، وتعولمت الأخبار التلفزيونية، أكثر فأكثر. وفي ظرف لم تعد القنوات التلفزيونية تتهافت على استيراد البرامج التلفزيونية الجاهزة للبث، أو الأفكار التلفزيونية القابلة للتصنيع والبث المحلي فقط، بل تدافعت لاستيراد " نماذج تلفزيونية" أجنبية ناجحة تجاريا في الخارج بكل ما تتطلبه من عدة تنظيمية وفلسفية! وهكذا تماهت العديد من القنوات التلفزيونية التابعة للقطاع العام مع القنوات التجارية، وطلقت خصوصيتها وتخلت عن وظائفها وأدوارها.

لقد برهنت التجربة على أن نموذج التلفزيون التجاري محكوم عليه بتكرار برامجه لجذب أكبر عدد ممكن من المشاهدين لأطول فترة ممكنة. إنه لا يغامر بطرح الجديد وغير المسبوق ثقافيا وجماليا، بل يعرض ما هو مألوف ومجرب ومضمون في سوق المشاهدة لأن الجمهور أختاره وتعود عليه. [1]

أمام زحف السوق في تنظيم القطاع السمعي- البصري في العديد من الدول، قامت الدول بتنظيم أنشطته، وشعرت الأمم الضعيفة والدول التي تعاني من إشكالية معقدة في هويتها بضرورة إصدار ترسانة من القوانين، وتبن مجموعة من الآليات التي تشجع القنوات التلفزيونية للإسهام في الحفاظ على وجودها الثقافي واللساني والفني والأدبي، وتسند دوره في إنتاج وإعادة إنتاج ما يعزز الانتماء إلى ثقافة وحضارة الأمة أو الدولة. فكندا، على سبيل المثال، أصدرت قانونا خاصا بالإذاعة والتلفزيون سنة 1991 يعمل على رفع إسهامهما

---

[1]- هذا ما صرح به مسؤول البرمجة في القنوات التلفزيونية التي يملكها السيد برسلكوني في إيطاليا. نقلا عن :

Armand Mattelart (2002) : La diversité culturelle: entre histoire et géopolitique colloque panaméricain et 2001 Bogues gricis- Montréal 24- 27 avril

في تعزيز الهوية الوطنية أمام التشنجات اللسانية، والخلل الثقافي والإعلامي في المادة الإعلامية والثقافية المتلفزة بين الأقاليم الكندية، وبين المنتج الكندي والأجنبي.وعينت هيئة مستقلة تشرف على احترام تطبيقه. وأصدرت دولة المكسيك، من جهتها، قانونا خاصا بالإذاعة والتلفزيون يوم 24 مارس 2002 قننت فيه إسهام القنوات التلفزيونية في إحياء وتطوير ثقافة السكان الأصليين كمكون أساسي للهوية الوطنية المكسيكية. وانفردت فرنسا بكثرة قوانينها ومؤسساتها العاملة على ترقية الهوية الفرنسية، بدءا من ترقية اللغة الفرنسية في الداخل والخارج (يمكن أن نلاحظ أن جل الألعاب التلفزيونية الفرنسية، خاصة تلك التي تبثها القنوات التلفزيونية العمومية، تركز على ترقية استخدام اللغة الفرنسية، مثل: Les chiffres et les Lettres ، وMotus ، Pyramides ، وغيرها). والأغنية الفرنسية، والفيلم الفرنسي، والإنتاج الأدبي الفرنسي...

تأسيسا على ما سبق، هل يمكن الحديث عن الحفاظ على الهوية الوطنية أو العربية- الإسلامية أو ترقيتها في ظل غياب سياسة ثقافية دقيقة، وغياب الإرادة التي تحدد جوانب القوة والضعف في هذه الهوية، وتحدد أولويات التدخل وآلياته القانونية والمادية والمؤسساتية لتعزيز حضور هذه الهوية في مختلف المجالات، وخاصة القنوات التلفزيونات الوطنية؟

هل يمكن للخطاب الوعظي، وحتى الاحتجاجي على تزايد القنوات التلفزيونية العربية التي تكتفي ببث شريط الرسائل القصيرة المشبوهة، وأغاني الفيدو الكليب والتنجيم والشعوذة، في ظل شبه فراغ قانوني، أن يسهم في الحفاظ على الهوية الوطنية أو العربية الإسلامية من الضياع؟ هل تستطيع هذه القنوات التلفزيونية التي عجزت عن امتلاك هوية مرئية خاصة بها أن تخدم الهوية الوطنية؟

لو سلمنا مسبقا بأن الهوية الوطنية لا تندثر وتمحى من الوجود نهائيا، بل تتغير وتتبدل بفعل احتكاكها، وتفاعلها، أو لنقل تداخلها مع الثقافات الأجنبية، أو الثقافة العالمية، فهل نملك العدة اللازمة في مجال وسائل الإعلام المرئي للتدخل الواعي في توجيه هذا التغير أو التبدل؟